إجالة النظر
في حروف الشمس والقمر

أقول من باب تنوير القارئ البعيد من هموم اللغة وهجائها أن تسمية الحروف بالشمسي والقمري جاءت من دخول أداة التعريف (أل) على الأسماء فإذا ظهرت لام التعريف ساكنة ومستقلة غير مدغومة قبل الحرف الأول من الأسم الذي دخلت عليه كان ذلك الحرف الأول قمريا. وإذا اختفت اللام وجاء أول حرف من الأسم الذي يليها مشددا كان ذلك الحرف شمسيا، فنقول: القمر، الخريف، البرسيل، الورد.. وغيرها باظهار اللام ساكنة ويأتي الحرف بعدها في أول الأسم غير مشدد. ونقول: الشمس، الزهر، الطير، النفس... وغيرها باخفاء اللام وتشديد الحرف الذي يليها في اول تلك الأسماء: فالطائفة الأولى قمرية والطائفة الثانية شمسية. وجاءت التسمية منسوبة الى الشمس والقمر من باب التحلية باعتبار أنهما أكبر النيرات في اجرام السماء والإلحاقات تسبقها الى (ضريفين وشتائي، مائي وناري، فضي وذهبي...) والى غير ذلك. وحروف القمر هي الباء والواو والهمزة والهاء والحاء والعين والغين والكاف والقاف والميم والياء والفاء. وحروف الشمس هي اللام والنون والثاء والراء والزاي والسين والشين والدال والذال والطاء والظاء والصاد والضاد والنون. أما الألف فهي حرف حركة مثل الضم والفتح والكسر ليس لهن قوام مستقل فلا يظهرن في النطق الا بعد حرف يحركنه. وحرف الجيم ذو طبيعة ثنائية فهو شمسي وقمري وسيأتي بيانه.

الواو والياء تنقلبان الى حرف حركة في مثل: روح، شديد، ذو، في..

ويجب الاشارة الى ان حروفا بعينها موجودة في غير العربية مثل الباء والجيم والكاف والزاي والفاء الفارسيات هي في طبيعتها اما شمسية واما قمرية وإن يكن ذلك غير ذي أثر في لغتها ونطقها اذا دخلت العربية ووقعت بعد اداة التعريف لظهرت طبيعتها مثل سائر الحروف فالزاي الفارسية شمسية والجيم الفارسية ثنائية الطبيعة والحرف الثلاثة

الأخرى قرية .

وللأضرب في بيان حقيقة أخرى كملاحظة عابرة يقتضيها المقام وهي ان مصطلح (ألف لام التعريف) غير منطبق على موضوعه لأن الألف لا تظهر أبدا في أول الكلمة بسبب استحالة نطقها مستقلة فالصحيح هو (همزة لام التعريف) والهمزة غير الألف وقد بحثت (الصوتيات - الفونتيكس ، الفونولوجي) قصة عويصة تضرب بجذورها الى أكثر من ٥٠ قرنا يوم نقلت الأبجدية الفينيقية الى الغرب خالية من شكل للهمزة فلم توضع لها صورة كسائر الحروف وإنما درج نطقها في حروف أخرى سميت (Vowels) وتم انكار كونها صوتا لغويا في لغات الغرب ... الخ ومعاناتي من ذلك في محاوراتي بالكلية ما ضاق به صدري على غير طائل ، ولا مجال لشرح كل ذلك هاهنا .

على اي حال ، ليست مسألة الشعر والنثر في حروف الطباعة ذات خطورة عملية وهي أشبه بالترف الفكري منها بشيء عملي ولا تتعلق بها واحدة من مصالح البشر الحياتية أو السياسية .. الى آخر الكلمات المنفرة بياء النسبة المشددة .

لكن أفراغ الموضوع من الخطورة المصلحية لا يحكم قطعا بافلاسه من كل وجه فيبقى له جانبه الجمالي والفني واتصاله بالتراث وأخلاق من خصائص اللغة العربية وهي لغة ثرية تشتمل بال العصابر على نطاق واسع . فاذا كان الانسان يحتو بالجهد والمال في الاعتناء بالشطرنج وسائر الملاعيب وهي أبعد ما تكون عن المصالح فقد كانت للغة زيادة حق في جلب انتباهه وحرص ذاته عليه بالقياس الى الملاعيب والملاهي فاللغة كلها صنع بشري من حروفها الى كلماتها وجملها ومعانيها فنحن نخلقها فكرا و نخرجها نطقا من العدم المحض ولا تتصل اتصال الخلق الكامل باي شيء آخر في هذا الوجود فان اجسامنا واجسام مواليدنا و المواد المستعملة في خلق الفنون كلها آتية من الطبيعة ولا يستثنى منها الا (الفانتوم) او التمثيل بالحركات و شتان ما بينه وبين الكلام في القدرة على التعبير و الأيصال . ولقد قلت في بعض ما كتبت منذ سنين عن مكانة اللغة أنها ترجمان العقل و دعامة الحضارة وجسر التواصل بين الناس فحري بهذا الأعتبار اجدر ان تكون موضع اهتمامنا في جميع اثرها كلها ومنها اداة التعريف .

ولقد طرق سمعي في اوائل هذا الشهر الأول من سنة ١٩٨٠ رأي قيل انه نشر في احدى الصحف يستدل من اختفاء لام اداة التعريف عند مجاورتها لحرف شمسي ان حرف اللام نفسه حرف قمري لأن لام التعريف لا تختفي في

مجاورتها لها بل تظهر في دغمها ، فأنت تقول (اللّوم) بتشديد لام (لوم) والتشديد تكرار الحرف .

ليس عندي مصادر أرجح اليها لتحديد ما قاله اللغويون القدماء في تعريف الحرف الشمسي والقمري وما اشترطوه في هويتها ولكن الغالب على ذهني أنهم قالوا بدغم لام التعريف في الحروف الشمسية لصعوبة نطقها ساكنة عند مجاورتها لحرف شمسي مثلها فيكون تشديد الحرف عوضا عن اللام المدغومة وليس أنها تختفي بالمرة .

على ان التعريفات والشروط التي يأتي بها ناس من اهل الصنعة لتحديد هوية الموصوفات لا تخلق خصائصها وطبائعها وقصاراها ان تتطابق معها أو تقاربها وذلك أمر بالغ العسر فان تعريفات كثيرة تعوزها الدقة وقد ما كان منها جامعا مانعا فمصطلح (المربع) الهندسي يصدق في المربع والمستطيل والمعين وشبه المنحرف . اما المستطيل فهو يشمل كل شيء طويل ، و (ضلع) الشكل الهندسي مواضعة لا أصل لها في الواقع فالخطوط لها هامات بلا خطوط ثم أضلاعا وكل الضرورة ألمتها لاجراء المسائل الهندسية وتنظيم التصاميم سواء في ذلك السطح والمجسم فهو كله خال من الخطوط . ومن زاوية الضرورة هذه تسامح في قصور التعريفات مادامت غير مخلة أو مضللة فيجوز الاكتفاء بالمصطلح المختصر للدلالة على تفصيله .

فاذا حدث ان احد التعريفات جاء مغايرا لطبيعة موضوعه فقد وجب تبديله أو تعديله ولا يشفع في ذلك التقادم والغلالة التاريخية الباعثة على الاجلال ولا السبق الى الاجتهاد فنحن لا نقبل من القدماء شرط اختفاء لام التعريف بلا اشارة الى الدغم للتدليل على ان الحرف الذي يلي اللام هو شمسي ولو فعلنا بذلك وتجاهلنا الدغم وجبت قراءة الكلمات المبدوءة بحرف شمسي هكذا : أزهر ، أرجل ، أسبع - وإنه لسواء ان يكون القدماء قالوا او لم يقولوا فالدغم حاصل وسببه معروف وهو صعوبة نطق اللام الساكنة قبل الحروف الشمسية فاذا كان ذلك كذلك فقد صار من حكم البديهية ان تزداد الصعوبة في نطق لام ساكنة قبل لام أخرى . فأنت تجد لدى العراق عامة والبغادذة منهم خاصة

يلفظون اللام في : (الرجل ، الدير ، الشمس ...) ولكنهم يدغمونها بحكم الضرورة في اللام فيقولون: (اللّيل ، اللّوم) بتشديد لام هذه الكلمات ولو قال أحدهم: (الليل ، الوم) لضحك عليه الخلق لغرابة ما يفعل.

الذين تكلموا في قواعد اللغة وطبائع الحروف منذ أكثر من الف سنة (واظن ابن جني اطولهم باعا في هذا الميدان) انطلقوا الى ذلك من حسهم الفطري بالاشياء وتوقفوا في مسائلها الى حد المبالغة واستنفاد الجهد والتوغل في المجاهل بدل انهم فرضوا قواعد منطقية على اللغة باجتهادات متباينة فكان هذا أحد اسباب الخلاف في مذاهب النحويين. واستحوذ النحو على الأفهام والاذهان حتى اعتبروه بابا لكل العلوم وتركوا بحوثا في هذا الرأي والاستدلال هي موت الدر والصدف فنحن نملك الخيار في الرفض والقبول مع الأكبار لاولئك الفحول في الحالتين. لقد شرعوا في استنباط قواعد اللغة وطبائع الحروف (وفي فقه اللغة خاصة) مراحا مفتوحا للفهم والتذوق بعدهم ليغوصوا حتى قرار القرار مع ملاحظة ان ميلنا لزيادة اعتناء بطبائع الاشياء كما هي في حد ذاتها بمبعدة من تسرب التحيز والميل الشخصي الى ساحة البراهين فقد مازجت الواقعية الحديثة قوام الفكر والتصور بسبب ما كان للقواعد والبراهين المستندة الى التجربة من أثر هام في تحديد الأحكام وتسديدها. ولقد عانيت احدا طويلا في التفاعل الفكري مع حروف الهجاء (والصحيح أصوات الهجاء لان الحروف هي الصورة المكتوبة للصوت اللغوي) حتى انى قضيت سنين وسنين في سبر الاصوات اللغوية الكردية ودرجة التنادي والتنائي أو درجة التآلف والتنافر بينها وتأثير ذلك في بناء صيغ الكلمات وما تقام (الكسرة المختلسة) وقد سميتها في الكردية (تنقيلا) في ربط الحروف بعضها ببعض وحتى تطرأ وكيف تختفي. وأعملت فكري في حروف الشمس والقمر لمعرفة السبب في انفرادها فرقتين دون ان ارجع في ذلك الى مصادر كانت مفقودة عندي فتوصلت الى إدراك ان اتصال مخارج حروف الشمس بمخرج اللام في أداة التعريف العربية أدى الى صعوبة نطق اللام الساكنة قبل تلك الحروف وظننت اني بلغت هذا الادراك غير مسبوق

حتى وجدت كتابا من مطبوعات المجمع العلمي العراقي منذ بضع سنين يذكر ان سيبويه شرح هذا الأمر في بعض كتبه وربما شرحه آخرون لم ألتق بما كتبوا. وبقيت مسألة حرف الجيم وطبيعتها الشائية من شمسية وقمرية فتوصلت الى سببها بجهود فردي خالص وذكرته لبعض الأخوان منهم الدكتور كمال مظهر استاذ التأريخ في جامعة بغداد فأشار بوجوب نشره فتراخيت عن ذلك بضع سنين الى ما قبل شهرين أو نحوه اذ كتبته ضمن مواضيع خرجت من يدي الى يد صديق ينوي نشرها فما أظن واحدا منها قد نشر فبقيت مدفونة في كومها الورقية. واليوم اعود اليه فأقول ان السبب في ثنائية الجيم هو أن مخرجها متصل بمخرج اللام من جهة الحلق وليس من جهة الفم الذي هو الطريق الطبيعي لخروج الصوت اللغوي فتكون مخرجها متصلا باللام فهي شمسية وتكون مخرجها واقعا في جهة الحلق سهل نطقها كصوت قمري. واقول في المناسبة وزيادة في الفائدة ان صوت الخاء ليس من حروف الحلق خلافا لما ذهب اليه الأقدمون من أنها ستة هي الهمزة والهاء والعين والحاء والغين والخاء لأن الخاء تأتي بعد القاف باتجاه الفاء نحو الخارج فالغين آخر حروف الحلق. وهذا ما أحسه في النطق وليس باستعمال الآلات.

هذه أمور تظهر للفكر وللنظر في يومنا وكانت خليقة ان تظهر منذ الف سنة بلا آلات فلا أظنها تستدعي المجادلة. لكن هنالك حقيقة اخرى أضخم من كل ما تقدم تزيد في وضوح الصفة الشمسية لهذه الحروف ومنها اللام بل انها تجعل موضوعها تحصيل حاصل وأمرا مفروغا منه ذلك ان الحروف الشمسية كلها تجمع في ملتقى خاص بها ولا نصيب فيه لحروف القمر وهو أن اللسان رغم كونه أشهر وأقوى اعضاء النطق فهو يشارك فقط في خلق حروف الشم ولو ادرت اللسان واعضاء النطق في اخراج حروف الهجاء لوجدت ان اللسان غير ذي دخل في اي واحد من حروف القمر فمن مستطاع شخص مقطوع اللسان ان ينطق الهمزة والهاء والقاف والعين وسائر حروف القمر وان يكن بشيء من الثقل ولكنه لا يستطيع نطق اللام والزاي والسين واخواتهن من

حروف الشمس لا بثقل ولا بطلوع الروح . ومن هذه الحقيقة تبدو مجاورة حرف اللام وسائر حروف الشمس تحصيل حاصل يغني الدارس عن اعادة مناقشته .

هذا الذي قلته في اقتصار دور اللسان على افراج حروف الشمس شيء لم أقرأه في كتاب ولم أسمعه من انسان فهو نتيجة انتهيت اليه حقاً من حقوم المثابرة في طريق مستقيم . ولكن أعلم علم اليقين ان علماء الفونولوجي والفونتيكس في الأمم المتقدمة بما لديهم من اجهزة علمية كاشفة لطبيعة الأصوات وتحديد مخارجها وحقائقها وما تحدثه من اهتزاز اوتار الصوت وانضغاطها وما لا تحدثه قد انتهوا بداهة الى الأصوات اللغوية التي يثيرها جهاز اللسان ولكن لم يبلغني شيء يشير إلى أنهم ربطوا بين ذلك وبين موضوع حروف الشمس في العربية . ولقد قرأت بحوثاً في بعض كتب الفونتيكس بالانجليزية كانت في غاية الدقة والتحديد من حيث ضبط الطبيعة والمزاج لكل صوت لغوي وهل هو شفوي أم حنكي أم احتكاكي أم انفجاري .. ولكن كان بيان ذلك من قبيل تقطيع الحروف المذبوح ووضع كل عضو منه في كيس منفصل عن سائر الأكياس فلا يحصل من مجاورتها حروف يشغو أو ينطح أو يعبث فلم يعد يفيدني ان النون يخرج من الأنف وليس من مدخنة السماور . لم أجد لهذا العلم ان اتصال مهما يكن واصبا ببقية مباحث اللغة فهو بمثابة علم الطاولي لا ينضح على ما سواه اطلاقا ، فانت بدراستك للفونتيكس او الفونولوجي الذي التقيت به حتى الثمانينات لا تقارب السبب في قلب (تاء) باب (الافتعال) الى (طاء) في مثل (اضطرب ، اضطلع) او الى (دال) في (ازدجر) وانها تدغم في (اطّرد ، اطّلع) ولن تجد ما يضيء لك العلة في ان الثقل المحسوس به في لام التعريف عند مجاورة بعض الحروف حتى يكاد يختفي في (يلمع ، يلزم ، يلطم ، كالشوم) رغم ان اللام جاءت ساكنة قبل حرف شمسي في هذه الألفاظ . لقد صدق الذي قال أن التخصص المبالغ فيه قاطع للترابط بين المواضيع ، وألزم ما يكون الترابط هو الحاصل في متعلقات الكائن الحي عموما والكائن العاقل (البشر) خصوصا حتى ان تأريخ مرتبط بجغرافياه ودينه لا ينفك عن إلحاده وزواجه متصل باباحيته وبخله صورة سالبة لكرمه وكذبه مقلوب صدقه واذا الاحترام لتختار في استكناه ما تحت الصدف في كثير من أصدافه وتحقق الرموز الموحية في

اوهامه حتى وجدنا في زمان العلم والنور بنهايات القرن العشرين مدارس للاستبصار والحاسة السادسة والسابعة واشتغلت بحوث العقل الباطن والباراسايكولوجي حتى كادت تصبح اشبه بالكوابين في حالات وحالات ونشأت مدارس للفيزياء تتكلم بما يشبه الأسطورة في شؤون الجسيمات في بواطن الذرة حتى صارت تنكر وجود الكمية في النتائج المرتقبة من التفاعلات الكيميائية فكيف يصح التسليم بأرجحية انقطاع فروع المعرفة بعضها عن بعض حتى اذا كنت طبيب العيون تصامت عن الانف والأذنين ؟ اني ذهبت في ذلك وفي غيره من مسائل الفكر والمعرفة عموما مذهبا يخالفه تماما فاستغنت من الوقوف عند ظاهرة الحروف الشمسية وكون اللسان يشارك في خلقها دون غيرها فاضفت بدورها بعفوية خالصة الى صفات في حرف اللام ترجحه على سائر الحروف ليكون عمود أداة التعريف في سليقة الناطقين بالضاد عبثا لي باطراد كي تبدو الاشياء في ازدياد نور

الحق ان اللام اشد الحروف التصاقا باللسان في انقباله بباطن اللثة فلا تجد الا انطباق الكامل بين اللسان واللثة في نطق اللام حتى يستحيل دخول الهواء بينهما كما يحس في نطق الذال والزاي والراء ... الخ بل ان حرف الضاد الذي هو أثقل الحروف تختلف عن اللام في صفتين على أثقل تقدير اولاهما ان الضاد لا تحتمل الأطالة في كالباء والتاء والقاف وحروف اخرى يتراءى مداها بمجرد نطقها في تولد و تنقضي في لحظة واحدة على حين تمتاز اللام وحروف اخرى بشمسية وقمرية بقابلية المط والمد الى انقطاع النفس وهذا بذاته وجه أرجحية تغني عن غيرها لتقديم حرف على حرف آخر يستخدم في تكوين اداة تعريف تأتي بأول الكلمة وقد تتعدى الاحوال أن يبطئ المتكلم ليختار اللفظ الآتي بعد اداة التعريف mm فيتشاغل بمدّ للامها ريثما يتم له الخيار فيقول وهو مستمر في كلامه : (والـ..) فيطيل في اللام حتى يختار بين (البحر، الرمل، التراب) المادة المرجحة عنده. ولا خيار له في ذلك اذا قال (واضـ..) عوضا عن (والـ..) فالضاد لا تحتمل الاطالة.

والصفة الثانية هي ان الضاد تقع من حيث الكثافة والتخالف بين اللام والضاد فاللام في قياس الحروف كثافة كاملة ويأتي التخالف بعدها

تباعًا من الضاد والدال والطاء حتى تصل الى السين والشين والثاء والظاء فتجدها هواء مضغوطا الى خارج الفم . وحذفت النون من هذا القياس لأنها ثلاثية المخرج من اللسان واللثة والأنف ولولا ذلك لجاءت بعد اللام في الكثافة فالصفة الأنفية أفقدتها ملاءمة مجاورة حروف الشين لأنها للتفخم الا في نفسرح وفي الميم فلا يسهل استعمالها الا مع حروف القمر .

واللام من الحروف اللينة بل اشدها لينا ومرونة فهي لا تحتك ولا تخدش ولا تتذبذب بالرنين . وتقاربها الواو والنون والميم في هذه الصفة ولكن الواو رخوة جدا وفي حال السكون تقرب ان تكون حرف حركة . والميم والنون انفيتان فخرجت كلها عن ان تكون بديلا عن اللام .

ثم ان اللام من الحروف المنبورة المجهورة فهي فخمة بجرسها الذي تفتقده حروف كثيرة من شجية وخرية كالسين والشين والثاء والظاء .. واغلب الحروف المهموسة ، اي غير المجهورة ، لا تكاد تسمع اذا جاءت ساكنة .

واللام حرف نشط في الصرف والنحو فهي ضمن مجموعة (سألتمونيها) الحاوية للزيادات . وهي واحدة من ضمن ادوات الجر المتكونة من حرف واحد هي اللام والباء والكاف والواو القسم وتاء القسم . وأقوى هذه الحروف هي اللام والباء لتعدد تصرفها في المعنى فانت اذ تقول (لك شكري) كان المخاطب متلقيا وحين تقول (لك الفضل في نجاتي) كان ملقيا . وتأتي بمعنى (إلى) . وفي المثل المشهور (لأمر ما جدع المرأة سيأ...لها) جاءت اللام في معنى (بسبب) . والباء مثل اللام في هذا الباب ولا تأتي لبيانه . والكاف أضعف من اللام والباء وتأتي بعدها واو القسم ثم التاء وهي اقلها استعمالا وتعتبر واو العطف وهمزة الاستفهام قويتين وبعدهما حين الاستقبال ولام التأكيد والفاء السببية وكلها حروف مفردة وتكررت فيها اللام .

وهكذا نجد ان اللام تقع في مركز الدائرة من حروف الشين وهي فقط مدار حركة اللسان في النطق واللام اذا سرة حروف الهجاء .

وليس للقارئ ان يردني فيما اذهب اليه بزعم ان المتكلم العربي لم يكن في سعة من أمره قبل الوقف السكيت كي يحاور نفسه بمثل هذا المنطق